

ملاحم التجربة الصوفية عند الولي سيدي يحيى بن كفية

أ. الكبار عبد العزيز
جامعة تلمسان

يعتقد بعض المفكرين الذين اهتموا بدراسة التراث العربي الإسلامي ، أن الإسلام الطريقي ترتد جذور نشأته إلى حركة الزهد التي انتشرت في المجتمع العربي الإسلامي حيث كانت نتاجا للصراع الاجتماعي والسياسي حول الخلافة وخاصة في عهدة خلافة عثمان بن عفان ، وقد ترتب عن هذا الصراع اعتزال بعض الصحابة ممارسة أي نشاط سياسي ، والتوجه إلى العبادة والابتعاد عن الفتنة الكبرى التي عاشتها الدولة الإسلامية في مراحل تاريخية متعاقبة وحاسمة من تطورها .

وتحولت حركة الزهد إلى مرحلة متطورة تمثلت في التصوف الذي تشكلت نواته الأولى بالعراق وتحديدًا في مدينة البصرة ، حيث مارسه نخبة من أهل السنة لقبوا بالصوفية : « إن التصوف نشأ بالبصرة وترعرع فيها على أيدي أولئك الزهاد الدعاة من فضلاء التابعين الذين كانوا امتدادًا لعهد النبي وصحابته

الطاهرين وذلك ابتداء من مطلع القرن الثاني الهجري الذي صار فيه خواص أهل السنة المقبلون على الزهد والعبادة يلقبون بالصوفية » 1

لم يتشكل التصوف في المشرق الإسلامي فقط ، بل انتشر أيضا في المغرب الإسلامي وذلك مع ظهور موجة الإسلام الطرقي الذي تأسس مع حركة المرابطين ، حيث انتشرت الزوايا والمزارات وقباب الأولياء ، وفي مراحل تاريخية متعاقبة برزت الطرق الصوفية وتعددت وانتشرت منها الطريقة الشاذلية والقادرية والشيخية والموسوية ...

وكان من بين الشخصيات الدينية التي مارست التصوف ، ولم تحظ بأهمية كبيرة عند المهتمين بالمسألة الصوفية في الفكر العربي الإسلامي ، الولي سيدي يحيى بن صفيه بمنطقة أولاد نهار بالجنوب الغربي من التراب الوطني ، وجده من أمه سيدي سليمان بن بو سماحة ، وأمّه لالة صفيه ، وخاله : سيدي محمد ، وسيدي أحمد المجذوب .. والسؤال الذي يفرض نفسه ونحن نحاول قراءة ملامح التجربة الصوفية عند هذا الولي مفاده : من هو سيدي يحيى بن صفيه ؟ كيف تشكلت شخصيته الدينية الصوفية ؟ وما هي الطريقة الصوفية التي انتهجها والتزم

بها في حياته ؟ وهل اقترنت شخصيته الصوفية بكرامات تمنح لهذا الولي شرعيته الدينية ومكانته الرمزية بمنطقة أولاد نهار ؟

- التعريف بشخصية سيدي يحيى بن صفية:

ولد سيدي يحيى بن صفية بمنطقة صفيصيفة بعين الصفراء ولاية النعامة حاليا بالجنوب الغربي الجزائري سنة 1528 عند بعض المؤرخين وسنة 1529 عند البعض الآخر، وينتسب حسب شجرة النسب إلى البيت النبوي من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص)، وينحدر من سلالة الأدارسة التي أسست مدينة فاس بالمغرب الأقصى، فهو سيدي يحيى بن عبد الرحمان بن موسى بن ابراهيم بن ابراهيم بن محمد بن زيد بن محمد بن العطاء بن زيان بن عبد الملك بن عيسى بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي القاسم بن عبد المالك بن عيسى الراضي بن موسى المرتضى بن جعفر الصادق بن محمد الناطق بن علي بن زين العابدين بن عبد الله بن حمزة بن أحمد بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسين المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله 2

وعلى الرغم من أن البعض يعتقد أن سيدي يحيى من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب فإن شجرة نسب قبيلة أولاد نهار تبين أن هذا الولي من ذرية الحسن بن علي وليس الحسين ، ومهما كانت طبيعة هذا الخلاف ، ومبرراته - حسب بعض المهتمين بقبيلة أولاد نهار - فإن ذلك لا يشكك في إنتماء سيدي يحيى وقبيلته إلى أهل البيت : « وعلى كل حال لا ضرر في هذا الاختلاف فإن الغاية التي هي بيت القصيد واحدة وهي الوصول إلى رسول الله وقد تقدم لنا التنبيه على ذلك بأن سبب الخلاف قد يكون من الناقلين الكتاب وقد ينشأ عن ذلك تصحيف ككتابة الحسن بدل الحسين وحيث كانت الغاية واحدة فلا ضرر ... » 3

نشأ سيدي يحيى بن صفية في أسرة محافظة متدينة ، كان والده سيدي عبد الرحمان معلم قرآن ، مارس هذه المهنة قبل زواجه من لالة صفية بنت سيدي سليمان بن بوسماحة ، كان جده لأمه سيدي سليمان يسافر إلى المغرب الأقصى والأندلس لدراسة علوم الدين ، وكان أبوه سيدي بوسماحة والد سيدي سليمان حريصا على تعليم ابنه ليصبح عالما متفقه في علوم الدين ، ولما أتم سيدي سليمان تعليمه الديني عاد إلى مسقط رأسه لما بلغه نبأ وفاة والده سيدي بوسماحة .

تزوج سيدي يحيى ابن صفية من أربعة نساء وأنجب له اثنتي عشرة ولدا كتبت أسماءهم داخل ضريح سيدي يحيى بن صفية في قماش أخضر يغطي ضريحه وتتمثل زوجاته وأبناءه وذريته الذين تركهم بعد وفاته في ما يلي 4:

- أم الخير: وهي الزوجة الأولى ابنة سيدي محمد بن واد فل دفين بني ورنيد بتلمسان ، أنجبت له ثلاثة أولاد وهم : محمد ، وعبد الرحمان ، وعبد القادر الملقب بالزائر .

- لالة مريم : وهي الزوجة الثانية ابنة خاله سيدي محمد بن سليمان بن أبي سماحة ، وأنجبت له خمسة أولاد وهم : الجيلالي ، أحمد ، أحمد ، أبو الطيب ، وأبو يحيى .

- ابنة سيدي عيسى البوزيدي ، دفين وادي يسر ، وأنجبت له ثلاثة أولاد : الشاذلي ، الحاج أبوكوره ، بن طيبة ، رقية زوجة سيدي محمد الشريف السليمانى وجد الشرفاء بأولاد نهار.

- ابنة الشيخ من مزيلة وهي بطن من بطون قبيلة أولاد ورياش بمنطقة سبدو ، وأنجبت له ولدا واحدا وهو أبو بوبكر .

ويشكل الإخوة الثلاثة : سيدي يحيى وسيدي أحمد وسيدي موسى وأبناءهم وذريتهم البنية السوسولوجية لقبيلة أولاد نهار

ويطلق عليهم عند سكان المنطقة « أولاد القلب » أو النسب القريب .

ويشكل أولاد سيدي يحيى بن صفية الفرق التالية:

- أولاد سيدي محمد وهم: بن حمادي، حمو عبد الله، عبد القادر.
- أولاد سيدي عبد الرحمان: وهم موسى، عبد القادر، عيسى.
- أولاد سيدي عبد القادر الملقب بالزائر: وهم محمد، بوعزة.
- أولاد سيدي الجيلالي: الحسن، محمد الكبير، أحمد الكبير، محمد الصغير، كلثومة، الزهراء، خيرة.
- أولاد سيدي احمد: يحيى، جلول، الشاذلي، الصديق.
- أولاد سيدي أحمد: الجيلالي، الحاج، بن عمرو.
- أولاد سيدي بوطيب وأولاد سيدي يحيى ذريتهما بالمغرب.
- أولاد سيدي الشاذلي: أحمد، عمر، حباد، يحيى.
- أولاد سيدي بن طيبة: سعيد.
- سيدي الحاج بوكورة: لا أولاد له.
- سيدي بوبكر: تعرف ذريته بأولاد سيدي عبد الله وأبنائهم: عبد الله، محمد، عبد القادر.

- مصادر التنشئة الصوفية لسيدي يحيى بن صفية:

نستشف في بعض الدراسات النادرة حول شخصية سيدي يحيى بن صفية بعض عناصر التنشئة الاجتماعية التي ساهمت في تشكيل وصياغة النزوع الصوفي لهذا الولي منها التنشئة الدينية والمحيط العائلي والإجتماعي الذي ترعرع فيه ، والفاعلون الإجتماعيون من المتصوفة وعلماء الدين الذين تتلمذ عليهم ، إذن يمكن تتبع مراحل التنشئة الدينية الصوفية من السيرة الذاتية لسيدي يحيى بن صفية على الرغم من أننا لا نملك معطيات دقيقة ومفصلة وشاملة تحيط بكل مراحل التنشئة التي اكتسبها هذا الولي طيلة مراحل حياته ، ولكن يمكن لنا أن نتصور ومن خلال قراءة سوسيولوجية للسيرة الذاتية لهذه الشخصية أن المرحلة الأولى بدأت تتشكل في وسط العائلة البوبكرية التي نشأ فيها ، نعني بذلك جده سيدي سليمان ، وخاله سيدي محمد وسيدي أحمد المجذوب ، وترتبط المرحلة الثانية بأمه لالة صفية ، وتتمثل المرحلة الثالثة في تكوينه الديني النوعي في زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان السهلي .

- الجد سيدي سليمان الصديقي ، العالم الصوفي

تكفلت العائلة البوبكرية بتربية سيدي يحيى بن صفية وخاصة بعد وفاة والده سيدي عبد الرحمان ، وكان جده لأمه

سيدي سليمان يسهر على تعليمه وتوجيهه ، هذه الشخصية ساهمت أيضا في تشكيل وصياغة شخصية أبنائه الثلاثة سيدي محمد وسيدي أحمد المجذوب ولالة صفية ، لقد تربى سيدي يحيى في زخم ديني بامتياز : « سي يحيى الأكبر ، ولد في صفيصيفة أكتوبر 1528 م ويتركنا هذا الميلاد بأن لالة صفية كانت تقيم عند أمائها أثناء فترة الولادة . كان الزوجان يعيشان في ضواحي الشلالة للضرورة المهنية لسيدي عبد الرحمان ، ودفن بالصحراء التي كانوا ينزلون بها وترك أولادا صغارا في حجر أمهم السيدة صفية وجدهم من أمهم السيد سليمان بن أبي سماعة وخالهم أخي أمهم سيدي أحمد المجذوب وسيدي أحمد » 6

تبرز كثير من الدراسات أن سيدي سليمان جد سيدي يحيى بن صفية قد درس عند شيخه المقرئ في الأندلس وسيدي محمد السهلي في المغرب الأقصى ، وكان من بين المتفوقين عند هذين الشيخين ، وخاصة أنه برع في علوم الحديث ، لقد استقر سيدي سليمان بناحية فقيق التي عرفت ازدهارا كبيرا في مجال علوم الدين مقارنة بمناطق أخرى وعرفت أيضا حركة التعليم الديني واللغة في منطقة عين الصفراء مثل

الشلالة والصفيفية : « من الطبيعي أن نفكر بأن الشخص
المفعم بالمعارف المكتسبة في أحسن مؤسسات الغرب الإسلامي
، يكون قد عمل على تثمينها ونقلها إلى طلاب مدينة فقيق التي
كانت أعظم قطب إقتصادي - الثاني بعد تلمسان في اتجاه
الجنوب ، لكنه بالخصوص أعظم تجمع وأكبر معقل فكري
للناحية . مدارس القصور الجزائرية « الشلالة ، الصفيفية ،
ربا .. لم تكن سوى مؤسسات ابتدائية أين يرتل القرآن مع تعلم
بعض المقتطفات من النحو والصرف التي لا تقارن بمثيلاتها في
فقيق . تركز القصور المزدهرة والواحات المنتجة أفرزت كثافة
سكانية عالية وبالتالي عددا ملائما من الطلبة المبتدئين. »7

نالت شخصية سيدي سليمان شهرة كبيرة في منطقة فقيق
، وأشرف على جميع مؤسسات التعليم الديني ، وتزوج من
إمرأتين تنتميان للشرفاء الذين كانوا يهيمنون على مختلف هذه
المؤسسات . هذه المصاهرة مع عائلات شريفة تنتمي للبيت
النبيوي مكنته من أن يحظى بمكانة رمزية عند سكان منطقة
فجيج .

لقد كان للتعليم الديني الذي مارسه سواء في المغرب
الأقصى ، وفي منطقة فجيج أثر كبير ساهم في توجيه الرجل إلى

التصوف خاصة أنه كان يبدي استعدادا وقابلية للولوج إلى عالم التصوف ، وكان لسيدي أحمد بن يوسف أثره البالغ في هذه الشخصية فقد التقى بسيدي سليمان وعلمه مبادئ الطريقة الشاذلية التي انتشرت في الجنوب الغربي من التراب الوطني: «سي سليمان منذ ريعان شبابه ، أبرز استعدادات ليس للدراسة فحسب لكن أيضا للتصوف ، الشيء الذي يعني بأن لشخصيته ، على الأقل ، ميلا إلى الوحدة والتأمل . من المؤكد أن سي سليمان أحس بحاجة للعزلة لفترات لكنها تجارب شخصية لأنه لم يكن ينتسب إلى طريقة صوفية . ليست فترات العزلة هذه رغبات خاصة ولا تمارين معينة .. نراه يعيش حياة اجتماعية نشيطة يبيع ويشترى ويعاشر ثلاث مدن كبرى « ربا ، شلالة ، فجيج » يعقد مصاهرة مع الأدارسة المحافظين إلى أبعد حدود ، يعطي دروسا ويلقي محاضرات في مؤسساتهم وفي نفس الفترة يجد الوقت الكافي للتأمل والنشاطات الزهدية في أماكن منعزلة .. جاء سي أحمد بن يوسف إلى الجنوب الغربي . وقد أصاب عندما ضم إليه سي سليمان الذي كان يتوفر على الشروط ليكون زعيم الحركة المرابطية على المستوى الجهوي . ملك الرجل عدة مزايا : الأصل المتميز ، الثقل الاقتصادي وعدة

تحالفات للقبيلة ، كفاءة في الميدان الديني ، هالة الطالب الذي
زار الأندلس، استعداد فطري للممارسات الصوفية، التفتح
والاعتدال الذان سمحا له بكسب احترام الأغلبية من سكان
الجنوب الغربي » 8

- الخالان سيدي محمد وسيدي أحمد المجذوب :

ساهمت شخصية خاله سيدي أحمد المجذوب وخاله
سيدي محمد أيضا في صياغة وتشكيل شخصية سيدي يحيى بن
صفية ، وفي نزوعه وميله إلى الدين الصوفي لقد تتلمذ سيدي
محمد على يد أبيه سيدي سليمان ، وأخذ علوم الدين من
شيخه الإدريسي عبد الجبار من فقيق ، كرس حياته للتعليم،
كان رجلا ورعا تقيا ومتواضعا ، اكتسب هذه الصفات عن
أجداده الأوائل ، وقد أنشأ زاوية للتعليم الديني وإيواء الطلبة
المحرومين واليتامى ولتسوية النزاعات والخلافات بين القبائل .
يعتبر سيدي محمد وابنه عبد القادر الملقب بسيد الشيخ فرعا
بوبكريا تنحدر منه سلالة أولاد سيد الشيخ .

وفي هذا الاتجاه يجب أن نشير إلى أن سيدي سليمان قد
تزوج من إمرأتين بمنطقة فقيق تنتميان لعائلتين شريفتين :

الزوجة الأولى وهي عائشة بنت أحمد بن عبد الجبار وتنحدر من عائلة إدرسية عريقة أشتهرت بعلمائها . هذه المرأة الإدرسية أنجبت سيدي أحمد المجذوب والزوجة الثانية هي المألحة أنجبت له محمد تربى سيدي أحمد المجذوب وسيدي محمد في وسط عائلتين شريفتين ساهمتا في تشكيل شخصيتهما وإعدادهما للبحث في علوم الدين ومن ثمة النزوع إلى التصوف : « مثل أخيه ، فإن أحمد بوبكري من أبيه وشريف إدرسي ينحدر عن الرسول (ص) من أمه . السلالة الأولى تشمل رجال دين مشاهير كأبي بكر الصديق ، سي معمر ، سي بوسماحة ، ... السلالة الثانية أساتذة معروفون : عبد الجبار ، البرزوزي .. نتاج هاتين الثقافتين الصارمتين، ولد أحمد بصريح العبارة في زخم ديني. عاش طفولته بين أبيه المتنقل للضرورة والمعلم عن موهبة ، وجده من أمه الذي سيرت عائلته منذ بداية القرن 15 م مؤسسات دينية في فجيج وربما في الشلالة . لم يعرف الطفل فترة راحة فعلية .. 9

وأما سيدي أحمد المجذوب فقد تلقى في الشلالة وفقيق علوم الدين واللغة من نحو وفقه وحديث .. و تتلمذ على يد شيخه سي أحمد بن يوسف الملياني الذي أخذ عنه مبادئ التصوف والطريقة الشاذلية ، وصار من أتباعه ومريديه ، كما كان لأبيه سي

سليمان فضلا كبيرا في صياغة الشخصية الصوفية لابنه سيدي أحمد المجذوب : « في المجال الديني ، فإن سي أحمد المجذوب كان نموذجا لمطبق التعاليم الصوفية . عاش كلية وبصورة صارمة تجربته منذ الفترة التي ، وهو في حماسة المراهقة ، تعرف فيها على مبادئ التصوف حتى آخر عمره ، كان عدوا لأنصاف الحلول والتسوية » التذبذب » ، فأخذ المعنى الحر للتعليم الباطني فكان الرجل الذي أراد أن يعيش التصوف عوض أن يسعى إلى نشر أسسه . إنه الشخصية الدينية الوحيدة في الجنوب الغربي التي حظيت، بالإضافة إلى اللقب العام، كالولي، الصالح، أو الشيخ، بلقب خاص « المجذوب » وهو يدل على حالة نوعية للتصوف. امثل كلية لتعاليم الشيوخ القدامى في علم الباطن بالعمل في البداية على تطبيق نذر الفقر الذي يمثل المبدأ والقاعدة التي يركز عليها سمو الصوفي المرید «10.

- الأم لالة صفية :

الولية لالة صفية من قبيلة أحلاف تيوت بمنطقة عين الصفراء ، وهي بنت سيدي سليمان بن سماحة من قبيلة البوبكرية ، واجد الجامع لقبائل الزوى ، والبوبكرية قبيلة تنتسب للخليفة الأول أبي بكر الصديق ، ويبدو أن بعض عائلات هذه القبيلة قد انتقلت في فترات تاريخية من تونس إلى

الجنوب الغربي الجزائري ، وكان يقود هذه المجموعات من العائلات الجد البوبكري الصديقي سيدي معمر أبي العالية : «لفظ البوبكرية تسمية تشير إلى مجموعة اثنية تتمركز بقوة في الجنوب الغربي الجزائري تنحدر منها عدة أعراش مباشرة : أولاد سيد الشيخ ، أولاد سيدي أحمد المجذوب ، أولاد سيد التاج ، وجانييا الفروع الموازية ، فرع من الغياثرة ومن جانب الأمومة أولاد نهار . ينحدر البوبكرية عن أول خليفة في الإسلام ، أبو بكر الصديق عربي من مكة يدعى أصلا عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم أو تميم بن مرة بن كعب .. حيث أن نسبه ونسب الرسول يلتقيان في الأصل الثامن مرة بن كعب. أبو بكر الصديق مسلم وورع وكثير من الطرق الصوفية تحمل اسمه ومن بينها طريقة الصديقية المعروفة في الشرق الأوسط وطرق النقشبندية في إيران » 11

لقد كان سيدي عبد الرحمان والد سيدي يحيى بن صفية تلميذا لسيدي سليمان البوبكري الصديقي في منطقة فقيق وبني ونيف يعلم القرآن لأطفال البوبكرية ، كان رجلا تقيا عرف بحسن سيرته ، وأعجب في فترة تدريسه للصبيان بلالة صفية

حيث طلب من أبيها سيدي سليمان أن يزوجها له فوافق على طلبه شريطة أن يحضر له وثيقة تثبت نسبه الشريف .

اتجه سيدي عبد الرحمان إلى مسقط رأسه بصفيصيفة لإحضار وثيقة إثبات نسبه الشريف التي كان يحتفظ بها أباه سي موسى : « هذا النوع من الوثائق المستعملة من قبل الشرفاء منذ ملاحقتهم الرهيبية في القرن 10 (الرابع الهجري) تمثل نسايبات مسجلة على دعامة صلبة : ورق مقوى ، مخطوط سبط أو جلد معالج محفوظة عموما في قطع القصب ومحقة لتوالي تسجيل حلقات السلسلة بأختام الفقهاء ، القضاة ورؤساء الزوايا وحتى الحكام » 12 .

هذه الشهادة التي تثبت السلسلة الطينية لسيدي عبد الرحمان ، وأصول قبيلة أولاد نهار لا زالت ليس فقط محتفظة في الذاكرة الشعبية عند جيل الكبار من قبيلة أولاد نهار، بل بينت لنا المعاينة الميدانية لضريح سيدي يحيى بقرية بوغدو ببلدية سيدي الجيلالي أن هذه الشهادة أو الوثيقة معلقة داخل ضريحه ، وبالزاوية العلمية لسيدي يحيى ببلدية سيدي الجيلالي، ومعلقة أيضا في غرف كثير من العائلات التي تنتسب لقبيلة

أولاد نهار . إنها وثيقة محققة بأختام عديدة تثبت النسب الشريف لهذه القبيلة .

تزوج سيدي عبد الرحمان من لالة صفية حوالي سنة 1527 م ويبدو أنه كان رجلا فقيرا يقتات مما يقدم له من مال أو ما يسد حاجاته المادية من طعام وشراب وكساء ومبيت مقابل تعليم القرآن لصبيان عائلات قبيلة البوبكرية التي تنتمي إليها زوجته لالة صفية ، وعلى هذا الأساس ، يتضح أن بين قبيلة البوبكرية وأحلاف تيوت رابطة دموية قائمة على المصاهرة .

لقد كان سي سليمان يعتني ويهتم كثيرا بصهره سيدي عبد الرحمان حيث منحه قطيعا من الغنم بمنطقة صفيصيفة أوفي ضواحي الشلالة لتلبية حاجتهما المادية : « .. وزوجته تلك الدرة النفيسة وأعطاه خباء كاملا بأثاثه وأعطاه بعض المواشي فزفت له تلك الجوهرة الجليلة والشجرة الطيبة التي تفرع منها غصون مثمرة ولم تخالف تلك الفروع أصولها » 13

أنجبت لالة صفية سي يحيى الإبن الأكبر في صفيصيفة عام 935 هـ / أكتوبر 1528 م وفي عام 1530 م أنجبت أحمد وموسى ، وبعد بضع سنين توفي سيدي عبد الرحمان وترك الأبناء

الثلاثة صغاراً في بيت أمهم لالة صفية وجدهم لأهم سيدي سليمان بن أبي سماحة وخالم سيدي أحمد المجذوب وسيدي محمد : « فرزقه الله ثلاثة أولاد منها وهو سيدنا يحيى أكبرهم وسيدي أحمد وسيدي موسى ثم لبي دعوة ربه إلى دار القرار ومستقره الأخير ودفن بالصحراء التي كانوا يتزلون بها وترك أولاده صغاراً في حجر أمهم السيدة صفية وجدهم من أهم السيد سليمان بن أبي سماحة وخاليهم أخوي أهم سيدي أحمد المجذوب وسيدي محمد ابني سيدي سليمان فهو جد القبيلة المشهورة بأولاد سيدي أحمد المجذوب من قبائل الزوى» 14 .

توفي سيدي عبد الرحمان عام 1537 م تقريباً حين كان يتنقل في الجنوب الغربي من تلمسان بمنطقة تيوت بعين الصفراء ، حيث دفن بها وقد ترك أرملة صغيرة لم تتجاوز ثلاثين سنة من عمرها ، وكان سن سيدي يحيى عشر سنوات تقريباً فتكفلت لالة صفية بتربية أبنائها الثلاثة الصغار ، وكان يحيى أكبرهم سناً ، كما ساهم جدهم سي سليمان وأخواهم سي أحمد المجذوب وسي محمد في العناية بهم ، يمكن القول إذن إن لالة صفية وأبناءها عاشوا وترعرعوا في القبيلة البوبكرية التي تركزت في منطقة صفيصيفة .

كانت لالة صفية متعلمة ومتدينة تمارس طقوسها الدينية بانتظام وتقوم بتربية أبنائها الصغار ، كانت وفية لزوجها عبد الرحمان وتزور قبره باستمرار بمنطقة تيوت ، هذه الصفات المتميزة منها التعليم الديني وممارساتها الدينية التي توفرت في شخصية هذه المرأة إلى جانب أنها ابنة شيخ قبيلة البوبكرية سيدي سليمان قد أسست لها مكانة رمزية خاصة بها عند قومها من أحلاف تيوت متمثلة في قيم الاحترام والوقار.. ليس فقط بهذه المنطقة مسقط رأسها ، بل إنها حضت أيضا بهذه المكانة بمنطقة صفيصيفة الفضاء الجغرافي والاجتماعي والثقافي الذي يشمل سلالة أولاد نهار وسلالة البوبكرين .

هذه المكانة الرمزية جعلت من لالة صفية المرأة الوقورة تمارس سلطة روحية فيما بعد فقد أصبحت من العابدات المالكات للبركات . هذه البركات لا يمتلكها إلا أشخاص متميزون يكونون عادة من شيوخ الزوايا وأبناءهم وأحفادهم ومن رجال الصوفية .. وتعتقد شرائح وفئات اجتماعية كبيرة من الناس أن هذه البركات يرثها الأبناء والأحفاد عن الأجداد والآباء. كما أن هذه المكانة الرمزية والسلطة الروحية التي امتلكتها لالة صفية فرضت على سكان صفيصيفة وتيوت

وأقاربها وأخويها سيدي أحمد المجذوب وسيدي محمد أن يكنى سيدي يحيى بإبن صفية فصار يناديه الناس إلى يومنا هذا بسيدي يحيى ابن صفية بدلا من سيدي يحيى ابن سيدي عبد الرحمان الذي تركه يتيما وهو صغيرا : « .. ثم إن أولاد سيدي عبد الرحمان بن موسى وهم سيدي يحيى وسيدي أحمد وسيدي موسى كانوا بعد موت أبيهم سيدي عبد الرحمان لا يدعوهم أخوالهم وأبناء أخوالهم إلا بأولاد صفية ولا ينسبونهم إلا إليها لعظم قدرها عندهم ولأنها هي من الصالحات القانتات وقد ظهر على يدها كرامات .. و لأن أباهم سيدي عبد الرحمان تركهم صغارا..

فلذلك اشتهرت نسبة سيدي يحيى بأمه وصار الناس من ذلك العهد إلى الآن لا يذكرونه إلا بسيدي يحيى بن صفية » 15.

وفي الصحراء بمنطقة صفيصيفة بعين الصفراء توفيت لالة صفية حوالي 1585 ، هذه الوفاة طرحت مشكلة كبيرة تمثلت في حدوث مواجهات دموية بين سكان تيوت وسكان صفيصيفة حول مكان دفن جثمانها ، حيث دفنت أول مرة بمنطقة صفيصيفة ثم نقلها أهل تيوت ليلا بعيدا عن أنظار سكان

صفيصيفة إلى منطقتهم للتبرك بها ، ولما شاع هذا الخبر عند أهل صفيصيفة جاءوا خفية وعادوا بها ودفنوها مرة ثانية ، وقام أهل تيوت بنفس ما قاموا به سابقا مرة ثانية وقد نتج عن ذلك اندلاع حرب دامية بينهما : « وأثناء تنقل موسمي حدثت وفاة لالة صفية قرب صفيصيفة التي كانت حسب الظاهر إقامتها العادية إبان الجزء الأخير من حياتها . دفنت مرة أولى في صفيصيفة غير بعيد عن ضريح سي موسى ، ثم ظهرت لتنقل إلى تيوت من طرف الأحلاف المعجبين المتحمسين لها . ذهب أهل صفيصيفة لاسترجاع الجثة وأعادوها إلى القصر لكن الأحلاف عادوا بقوة وأخذوها لدفنها في تيوت ليس بجانب زوجها على الضفة الشمالية للوادي . لكن على الضفة الجنوبية ، على صخرة مجاورة للقصر نجم عن هذه المعادة نزاع دموي بين سكان صفيصيفة وأحلاف تيوت الذين في عبارة مقتضبة يلخصون الحادث هكذا « مائة راجل وسلوقي ماتوا على لالة صفية » 16 .

ولتوقيف هذا النزاع الدموي تنازل أهل صفيصيفة لأحلاف تيوت بدفن جثة لالة صفية بتيوت وعمد سكان

صفيصيفة إلى تشييد ضريح لها بالمنطقة قائلين : « صفيصيفة
مبينة بلا لالة صفية » 17 .

– تكوينه الصوفي بزاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان السهلي:

انفصلت لالة صفية وأبناءها الثلاثة سيدي يحيى وسيدي
موسى وسيدي أحمد عن أخوالهم سيدي محمد المجذوب
وسيدي محمد ولم يتمكن الأخوان من استرجاع أختهم لالة
صفية ، فاستقرت هذه العائلة بعد رحلة شاقة وطويلة بمنطقة
قاحلة وخالية من السكان كان يسكنها قبل مجيء هذه العائلة
قبيلة بني حبيب ، وهي قبيلة بربرية تركت المكان ، وتروي
القصص الشعبية أن بني حبيب كانوا قوما فاسدين حلت لعنة
الله وغضبه عليهم فهاجروا إلى أماكن أخرى تتوفر فيها عناصر
الحياة والاستقرار : « ثم ارتحلوا يقطعون الفيافي يجدون السير
إلى أن وصلوا إلى بلدة خالية من السكان في ذلك العهد ولما
أراد الله أن يحيي تلك الأرض الميتة نزلوا بها وحطوا رحالهم في
الأرض وجعلت مسقطا لرؤوسهم ورؤوس ذريتهم ومسكنا
لهم .. قيل وقد يسكن هاته البلد قوم من البرابر يقال لهم بنو
حبيب ولما عاثوا فيها سلط الله عليهم القحط فيها فذهبوا منها

وارتحلوا عنها وتركوها خالية وذلك قبل مجيئ سيدنا يحيى بن صفية وأخويه بمدة 18

وفي هذا المكان المهجور الذي تحول إلى أرض خصبة
بمجيئ سيدي يحيى ابن صفية ووالدته لالة صفية وأخويه
سيدي موسى وسيدي أحمد بدأ يقصده عدد كبير من مشايخ
الدين يلقنون المريدين مبادئ الدين الإسلامي من حفظ القرآن
والحديث والتفسير وتعليم اللغة العربية ، وكان من بين هؤلاء
المشايخ الذين حلوا بهذا المكان الشيخ محمد بن عبد الرحمان
السهلي الذي يرتبط اسمه بزاوية السهلي التي تقع بالقرب من
قرية أبي ذنيب أو بوذنيب شرق الرشيدية بالمغرب الأقصى:
«تقع زاوية سيدي السهلي بوادي قير على بعد سبعين كلم
جنوب قرية عين الشعير . وقد أسست من طرف الشيخ سيدي
محمد بن عبد الرحمان السهلي وهو من شيوخ العلم والورع
والصلاح المعروفين. وقد كان له بنواحي توات أتباع ومريدون
، كما كانت له لقاءات مع نخبة صالحة من وجوه العلم وأبطال
المقاومة والجهاد بالجزائر . نذكر منهم : الشيخ عبد الكريم
المغيلي ، والشيخ سليمان بن سماحة دفين بني ونيف . وتعتبر
زاوية سيدي السهلي فرعاً من الفروع الأساسية للزاوية

اليوسفية الأم ، لذلك أقبل عليها الطلبة والمريدون من كل
الجهات » 19 .

تتلمذ سيدي يحيى عند هذا الشيخ وأخذ عنه مبادئ اللغة
العربية والفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن وتعاليم
الطريقة الصوفية الشاذلية : « شيخه سيدي محمد بن عبد
الرحمان السهلي كان من الأولياء الراسخين في العلم والولاية ،
وقد أخذ بدوره عن الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الشريف
الراشدي ثم الملياني ، صاحب الكرامات الشهير ورجل
السياسة وولي مليانة الموقر الذي كان يعد طيلة قرون من أوتاد
المغرب وأقطاب الطريقة الشاذلية في القرنين 15 و 16 . وهو من
خريجي مدرسة تلمسان الفكرية أواخر القرن التاسع هـ مدرسة
محمد بن يوسف السنوسي » 20

وكان من بين رفاق سيدي يحيى ابن صفية في مرحلة
الدراسة وتعلم الطرق الصوفية ابن خاله سيدي عبد القادر بن
محمد بن سليمان بن بوسماحة الذي يلقب بسيدي الشيخ جد
أولاد سيدي الشيخ ، وصاحب القصيدة المشهورة المسماة «
الياقوتة » ومؤسس الطريقة الشيخية . 21.

ولما أنهى سيدي يحيى تعليمه الديني تيقن شيخه محمد بن عبد الرحمان السهلي من تمكنه وقدرته على تعليم المريدين مبادئ الدين الإسلامي ، حيث عاد إلى بلدته ليستقر بجانب أمه وأخويه فذاع صيته ، وازدادت شهرته والتف حوله الناس من مختلف المناطق ، وترتب عن تزايدهم تشكل قبيلة تنتقل معه إلى أي مكان يقصده أو يحل به ، وكان أفراد هذه القبيلة يمارسون نشاط الرعي ويتجهون بماشيتهم في فصل الشتاء والصيف إلى ناحية الصحراء ثم يعودون إلى موطنهم الأصلي وصار الناس في هذه القبيلة يتزوجون ويتكاثرون .

- نماذج من كرامات سيدي يحيى :

تروي الحكايات الشعبية وبعض المراجع أن سيدي يحيى ابن صفية قد اقترنت شخصيته بمجموعة من الكرامات والبركات التي حظي بها لورعه وتقواه وتقربه إلى الله حيث كان يحب الخلوة والانفراد بعبادة الله بمكان يسمى « العبادة » بالقرب من ضريحه ، : « يمكن القول بأن المفهوم المتافيزيقي الذي يرجع ظاهرة « البركة » إلى قوى علوية أو المفهوم الاجتماعي - الوظيفي الذي يعتبرها قوة لها وظيفة اجتماعية

للصوص أرادوا ابتزازه وقتله فأمسك بقبضة من الحلفاء ونفخ فيها ،
وألقي بها على الأرض فأضرمت النار واحترقوا : « ومن كرامات
سيدي يحيى بن صفية أنه بينما كان في الأيام يتعبد في خلوة خالية
على رأس هضبة تسمى الصيادة إذ هجم عليه قوم من الناس كانوا
ينكرون عليه واحتاطوا به يريدون قتله فلما نظر إليهم قبض قبضة من
سبل الحلفاء اليابس وحكمها بيده ونفخ فيها ورمها في الأرض
جهتهم فاشتعلت نارا واحترقوا ولا زال إلى الآن محل هذه الخلوة
معروفا ومكان الحريق ظاهرا وبجوانب ذلك المحل نبات خفيف » 23

ومن كراماته أيضا ، والتي صارت من الحكايات الشائعة
يتداولها أحفاد سيدي يحيى بن صفية أنه اجتمع بأولاده في يوم
من الأيام وكانوا اثني عشر، وخص كل واحد منهم بصفة
تناسبه ، وتبين حالتهم المادية والاجتماعية من بعده فقال لهم :
« محمد كريمكم وكان أكبر أولاده ، والجيلالي بركتكم ، وعبد
الرحمان قطبكم ، وأبوبكر فالككم ، وعبد القادر هيلكم ،
والشاذلي عنايتكم ، وأبو طيبة في عاركم ، ومحمد مؤذنكم
وسكت عن الباقي فكان الأمر كما قال لهم أبوهم من جميع
الاشارات وسرى ذلك الأمر حتى في ذريتهم » 24 .

هذه الصفات التي ذكرها سيدي يحيى، وميز فيها بين
أبناءه تدل على أن ذريته تتسم بنسق من القيم الرمزية منها :
الكرم والبركة والتدين والشجاعة .. كما يبدو أن سيدي يحيى
قد منح لذريته هذه القيم ليؤسس لها مكانتها الرمزية وليجعلها
تمارس سلطتها الرمزية على باقي القبائل الأخرى : « إني لم
أترك لكم أحدا تخافونه يعني تخضعون له أو يرتفع فوقكم إلا
من بعضكم بعضا وإلا من أولاد شيخكم سيدي بن عبد
الرحمان السهلي » 25

كان سيدي يحيى ابن صفة شخصية دينية تعلم المريدين
والحسين مبادئ الدين الإسلامي واستعمل أسلوب الوعظ
والإرشاد وتنظيم حلقات الذكر ، كما كان كثير الانفراد بنفسه
للتقرب من الله بالعبادة والمناجاة والدعاء . كان يختلي بنفسه
بمنطقة الصيادة والعبادة ببلدية سيدي والجيلالي حاليا ، وكان
شيخ قومه ، ورجلا عادلا ووجيها يفك الخلافات بين الناس
وزاهدا في الحياة . كان يمثل السلطة الرمزية التي تستمد عناصر
قوتها وشرعيتها من تدينه أولا ومن نسبه الشريف الممتزج بآل
البت من خط أبيه والبوبكرية ثانيا ، وهي قبيلة تنتسب للخليفة
الأول أبي بكر الصديق من خط أمه لالة صفة .

لم يكن سيدي يحيى ابن صفية مؤسساً لطريقة صوفية خاصة به بل اعتمد في حياته الدينية على طريقة شيخه محمد بن عبد الرحمن السهلي الذي تتلمذ على يديه وأخذ عنه مبادئ الطريقة الشاذلية التي تأسست في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ، وتعتبر من بين أقدم الطرق الصوفية التي تشكلت بالمغرب وكان مقرها « بوبريت » في مراكش بالمغرب الأقصى .

تأسست هذه الطريقة على يد أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي ، الذي ولد بالمغرب الأقصى عام 1196 في بلدة غمارة القريبة من مدينة سبتة ، تتلمذ عند شيخه الصوفي عبد السلام بن مشيش بالمغرب الأقصى ، حيث حفظ القرآن ، ودرس علوم الدين واللغة ثم انتقل إلى تونس وأقام ببلدة شاذلة وهي المدينة التي انتسب إليها ولقب بها وتعرض لعدة مضايقات من بعض خصومه ، أدت به إلى الهجرة حيث حل بالاسكندرية بمصر . توفي وهو يشد الرحال لأداء فريضة الحج بالبقاع المقدسة سنة 1258 م ودفن في خميشرة بصحراء عيذاب بين قنا والقصير بصعيد مصر .

لم يكن أبو الحسن الشاذلي من غلاة الدين والمتشددين والمتزمطين ، بل عرف عنه حبه للباس الفاخر وركوب الخيل وتناول الأطعمة الشهية : « وقد عرف عن أبي الحسن الشاذلي أنه لم يكن متشددا ولا متمتا في ملبسه ومأكله ومشربه بل كان يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب ، ويتخذ من الخيل الصفنات الجياد لأنه كان يحبها ويقتنيها ويركبها فارسا وفي المواسم الدينية » 26 .

ظل سيدي يحيى بن صفية متمسكا بالمبادئ الدينية الإسلامية وملتزما بالطريقة الصوفية الشاذلية التي تلقنها من شيخه سيدي عبد الرحمان السهلي ، على الرغم من أن سيدي عبد القادر أوالأبيض سيدي الشيخ قد اتبع الطريقة الصوفية الشيخية ، كما اتبع أيضا الشيخ أحمد بن موسى بن خليفة بن موسى الطريقة الصوفية الموساوية التي تلقن بزاوية كرزاز قرب واحات الساورة القريبة من مدينة بشار ، حيث كان الشيخان تلميذان برفقة سيدي يحيى بن صفية لشيخهم سيدي عبد الرحمان السهلي ، وربما يعود ذلك إلى أن سيدي يحيى كان يؤمن بحرية اختيار المريد للطريقة الصوفية التي يقتنعون بها مادامت أن هذه الطرق الصوفية وإن اختلفت في بعض

الممارسات الطقوسية فإنها تهدف كلها إلى التقرب من الله وتعليم مبادئ الدين واللغة العربية للحفاظ على الهوية الثقافية والدينية للمريدين .

توفي سيدي يحيى بن صفية سنة 1610 م ودفن بوادي « بوغدو » في جبل سيدي محمد السنوسي على بعد أربعة عشر ميلا من بلدية سبدو وعليه قبة عظيمة يزورها الناس للعلاج والتبرك .. : « وما زال سيدي يحيى بن صفية على تلك الحالة المرضية والترقي في الدرجات والأسرار والنطق بالحكم الربانية ينهض حاله ويدل على الله مقاله إلى أن توفاه الله واختاره لجواره راضيا في أواخر القرن العاشر الهجري ودفن رضي الله عنه ببلاده هذه بواد بغدو في جبل سيدي محمد السنوسي على بعد أربعة عشر ميلا من سبدو » 27

لقد توفرت عدة عوامل اجتماعية وثقافية وتاريخية ودينية في تشكيل الشخصية الصوفية للولي سيدي يحيى بن صفية ، كما ساهمت التنشئة الأسرية التي تلقاها من جده سيدي سليمان وخاله سيدي محمد وسيدي أحمد المجذوب وأمه لالة صفية في تلقين هذا الفتى نسقا من المبادئ والقيم الدينية ، التي نمت وتبلورت في زاوية شيخه سيدي محمد بن عبد الرحمان

السهلي ، وجعلت منه بعد تكوين قاعدي في علوم الدين وليا صالحا يجسد مبدأ الوسطية حيث كان يوفق بين متطلبات الحياة المادية ومتطلبات الحياة الدينية ، فلم يكن منزويا في جبل منقطعا عن الناس ، بل كان يمارس واجباته الدينية ومندججا في الحياة الاجتماعية ، كان يحل النزاعات بين المتخاصمين ، ويقدم النصيح للناس ، كما كان وليا محترما بسيطا ومتواضعا يعدل بين الناس ، ويقاوم الميز العرقي والقبلي فقد سئل يوما : من هم أبناءك ؟ فرد قائلا بعبارة تتردد عند كثير من المبحوثين بمنطقة أولاد نهار : « الدربالة دربالي ولي يفتش فيها يعمى » مما يدل أنه كان لا يفضل ولا يقرب أبناءه على الآخرين ذلك أنه كان يؤمن بأن أبناء الصلب وأبناء القلب وكل مريديه يشكلون جماعة اجتماعية متجانسة .

لقد قمنا في هذه المداخلة بقراءة مركزة تكشف عن طبيعة التنشئة الاجتماعية ، وأهم مصادرها وعناصرها التي ساهمت مجتمعة في تشكيل الشخصية القاعدية للولي سيدي يحيى بن صفية ، وعلى الرغم من أن المصادر والمراجع التي بحثت في هذه الشخصية ضئيلة جدا ولا تكشف عن كثير من الأحداث والوقائع حتى أن الباحث يفقد أحيانا الخيوط التي تمكنه من

الربط بينها للاقترب من الهدف المنشود ، ولكن ذلك لا يمنع من أن يستعمل الباحث خياله السوسولوجي الذي يقوم على التحليل والتركيب والتفكيك ، وربما حتى الافتراض في مثل هذه الموضوعات يكون ممكنا ما دام العلم يقوم على ذلك ، بل وإن الرغبة في البحث تدفع بالباحث للمغامرة التي تستمد مشروعيتها في نهاية المطاف من النقاش الجاد والتساؤلات الوجيهة .

الهوامش:

- 1- صلاح مؤيد العقي ، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر ، تاريخها ونشاطها ، دار البصائر ، ط1، 2002 ، ص 25
- 2- الجيلاني بن عبد الحكم ، المرأة الجليلة في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحيى بن صفية ، مطبعة ابن خلدون ، تلمسان ، 1939 ، ص 26
- 3- نفسه ، ص 27
- 4- قيداري قويدر ، بستان الأزهار في سيرة سيدي يحيى بن صفية ومسيرة أولاد نهار ، دراسة تاريخية وأنتروبولوجية ، دار الغرب ، وهران ، 2009 ، ص 82
- 5- الجيلاني بن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص 44 - 45
- 6- خليفة بن عمارة ، سيرة البوبكرية ، ج1 ، تر: محمد قندوسي ، مكتبة جودي ، وهران ، 2002 ، 94
- 7- المرجع نفسه ، ص 54

- 8- نفسه ، ص 57
- 9- نفسه ، ص 99
- 10- نفسه، ص 04
- 11- نفسه ، ص 94
- 12- نفسه ، ص 94
- 13- الجيلاني بن عبد الحكم ، ص 28
- 14- نفسه ، ص 29-30
- 15- نفسه ، ص 32
- 16- خليفة بن عمارة ، المرجع السابق ، ص 96
- 17- نفسه ، ص 96
- 18- الجيلاني بن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص 32
- 19- صلاح مؤيد العقبي ، المرجع السابق ، ص 367 - 368
- 20- قيداري قويدر ، المرجع السابق ، ص 68 - 69
- 21- نفسه ، ص 70
- 22- عبد الجليل الطاهر، المجتمع الليبي. دراسة اجتماعية وأنتروبولوجية ، المكتبة
العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1969 ، ص 147
- 23- الجيلاني بن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص 41
- 24- نفسه ، ص 41
- 25- نفسه ، ص 42
- 26- صلاح مؤيد العقبي ، المرجع السابق ، ص 100
- 27- الجيلاني عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص 42

